القسم الثالث : الثورة : معناها وأنماطها

يتخذ التغير الاجتماعي أشكالا متعددة. والثورة هي أحد أشكال التغير الاجتماعي، بل هي الشكل الأكثر شيوعا في التغير الاجتماعي، وخاصة في العالم الثالث. ونناقش في هذا الجزء معني الثورة وطبيعتها وأنماطها المختلفة وذلك بغية التصدي للاجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما معني الثورة؟ وماسمات التغير الثوري؟
- والي أي حد وكيف تختلف الثورات بعضها عن بعض؟
- وما المتغيرات التي تمكننا من تفسير وتصنيف هذه الثورات وتميزها عن بعضها؟
- وما هي الامكانات التي ينطوي عليها كل نمط من أنماط الثورة في دفع وتوجيه جهود الاصلاح التربوي المنشود؟
- أي جهود الاصلاح التربوي - وفي أي نمط من أنماط الثورة - أكثر نجاحا في مجاوزة ما سمي بأزمة التربية في العالم الثالث؟ وأكثر مساهمة في تحقيق الأهداف الاجتماعية للثورة؟ وأكثر انفصالا وبعدا عن سياسة الماضي؟

١ - تعريف الثورة :

الثورة ظاهرة سياسية اجتماعية وتختلف من مجتمع الي آخر وفق الشروط البنيوية التي احدثت الثورة في كل مجتمع. ومع ذلك فان الدراسات الامبريقيةالمتعددة للثورات التي حدثت في المجتمعات المعاصرة قد مكنت الكثير من العلماء من بناء تعميمات وتفسيرات مختلفة لهذه الظاهرة. فثمة تعريفات متعددة ومتباينة للثورة لكن يمكن تقسيمها - بغرض التبسيط والايضاح الي فئتين من التعريفات، مع وجود بعض التعريفات تتأرجح علي الحد الفاصل بينها (أ. س كوهان، ١٩٧٩، ص١٨).

أما الفئة الأولي من تعريفات الثورة فتضم حركات التغير التي يحسن أن نطلق عليها "الثورة الكبري" والمنظرون الذين تقع تعريفاتهم في هذه الفئة كثيرون يشملون كرين برينتون وهانتنجتون الي جانب منظري الماركسية مثل لينين وماو. أما الثورات المعنية فتشمل الثورتين الفرنسية والأمريكية في القرن الثامن عشر، وأهم ثورتين في القرن العشرين الروسية والصينية. ويمكن أن نضيف اليهما - جدلا ثورات أخري مثل ثورة الجزائر وكوبا. وهي جميعا ثورات قامت بها الجماهير من أسفل. وعلي ذلك فان احداثا مثل استيلاء الجيش البرازيلي علي السلطة في ١٩٦٤ لا يمكن ادراجها هنا. وهكذا كافة الانقلابات العسكرية أو احداث التمرد أو حتي الانتفاضات الشعبية. وقليل من المفكرين الذين تقع تعريفاتهم في هذه الفئة هم الذين يعتبرون أحداث الجيش المصري عام ١٩٥٢ ثورة، بسبب ما أحدثته من تغيير في بنية المجتمع المصري. ويتفق علي تحديد هذه الفئة من التعريفات مع كوهان (المرجع السابق، ص١٨) كل من

زاجورين (P. Zsgorin 1973: 26 -27) وهيرماس (E. Her-mass 1976: 211) وسكوكبول (Skocpol: 1976: 175).

ومن أمثلة التعريفات التي تدخل في تعريفات الفئة الأولي السابقة – نعرض تعريفين تعريف لينين كمنظر ماركسي وتعريف هانتنجتون. فيقول لينين:

"الثورات هي أعياد المقهورين. وان تكون الجماهير في وضع تصبح فيه أكثر نشاطا وقدرة علي خلق واقع اجتماعي جديد من ذلك الوقت – أبدا (Lenin, 1966: 349).

أما صمويل هانتنجتون فيعرف الثورة من وجهة نظر غير ماركسية فيقول:

"الثورة هي تغير أساسي سريع عنيف في نسق القيم والمعتقدات السائدة في المجتمع، وفي مؤسساته السياسية، وبنيته الاجتماعية، وقياداته وسياساته، وأنشطته الحكومية... وأن كل الثورات تقتضي تعبئة جماهيرية وتوسعا في المشاركة الشعبية" (S. Huntington 1968: 264).

ان هذين التعريفين السابقين لكل من لينين وهانتنجتون علي اختلاف منطلقاتهما الفكرية، يجسدان تماما الفئة الأولي من التعريفات التي ترى الحدث ثورة اذا توفر له شرطان أساسيان بدونهما لا يكون ثورة. أما الشرط الأول فهو التغيرات البنيوية (الأساسية) الواسعة في المجتمع. وأما الشرط الثاني، فهو انخراط

الجماهير الشعبية في الحدث نفسه لصنع التغيير بمشاركة شعبية أو تعبئة جماهيرية واسعةMass mobilization participation. الثورة التي يشير اليها هذا النوع من التعريفات باختصارهي ثورة يتم فيها التغير الاجتماعي من أسفل، أي من خلال الجماهير وبها ومن أجلها.

أما الفئة الثانية من التعريفات فتضم تعريفات واسعة فضفاضة لمعني الثورة، بحيث تشمل كثيرا من أشكال التغير السياسي أو الاجتماعي التي يستبعدها النوع السابق من تعريفه لمعني الثورة. فيقول جونسون مثلا "الثورة هي قبول العنف من أجل احداث التغيير (C. Johnson, 1966: 17) ويقول ديفيز "الثورة تغير غير قانوني في الدستور الدائم... (بمعني آخر) الثورة تغيير في أسس الشرعية" (J. C. Davis, 1966: 2). والتغيرات التي يعنيهاكل من جونسون وديفيز هنا، هي تغيرات في الحكومة (أشخاص وقيادات) أو تغيرات في النظام السياسي (شكل الحكومة، اعادة توزيع بنية القوي السياسية) أو تغيرات اجتماعية في المجتمع (بنية العلاقات الاجتماعية، شكل الملكية، الطبقات المسيطرة، القيم السائدة).

الثورة اذن وفقا لهذا النوع من التعريفات هي تلك التغيرات الاجتماعية التي تتم بطرق غير قانونية ومن خلال العنف. ولا يوافق الماركسيون علي مثل هذا النوع من التعريفات التي يقدمهاهؤلاء الوظيفيون أمثال شالمرزجونسون وديفيز. وعلي ذلك فالتغيرات الاجتماعية والسياسية التي تحدث بدون عنف أو بشكل قانوني لا تعتبر ثورة. فالثورة وفق هذه التعريفات ليست عملا

سياسيا عاديا أو معتادا. "انها تغير يتم بالعنف والخروج عن القانون".

لكن الواقع التاريخي لثورات الشعوب تعرض لهاتين الفئتين من التعريفات بالنقد والتجريح. ذلك أننا نجد أن الفئة الأولي من التعريفات قد ضيقت مفهوم الثورة بحيث تشمل فقط الثورات التاريخية الكبري في تاريخ البشرية، ومن ثم نجده قد استبعد بالفعل وقائع امبريقية واضحة لتغيرات اجتماعية سياسية... عميقة.... سريعة.... بطرق غير قانونية "لكنها تمت بأسلوب فوقي - أعني عن طريق سيطرة الصفوة - العسكرية أو السياسية - علي جهاز الدولة، لاستخدامه بغير الطرق الدستورية المألوفة - في احداث التغيرات المطلوبة، وذلك مثلما حدث في مصر ١٩٥٢ وبيرو ١٩٦٨ وفي كثير من بلدان العالم الثالث. واستبعاد مثل هذه الوقائع من تعريف الثورة مسألة تنم عن معني ضيق للثورة غير مستوعب لظروف العالم الثالث وديناميه الأبعاد السياسية والاجتماعية المحلية والعالمية في القرن العشرين التي جعلت للدولة وللصفوات العسكرية في تلك البلدان دورا تاريخيا يمكن أن يلعبه في احداث التغيير(١٥). لكن يظل شرط التغيرات الأساسية في البني الاجتماعية شرطا أساسيا في أي تغيير ثوري.

أما الفئة الثانية من تعريفات الثورة، فاننا رأينا أنها تعريفات واسعة لدرجة أنها تتسع لتشمل كل حركات التغيير مثل الانقلابات السياسية، أو الهبات الجماهيرية. والانقلابات هي مجرد تغيير في الأشخاص المسيطرين علي الحكم دون أن يعقب ذلك أي تغيير في شكل الحكم أو طبيعته أو أهدافه وبالقطع فهذا الاتساع في

معني الثورة أمر يسلب التعريف أهميته المنطقية لكن يبقي أن شرط الخروج علي الشرعية القائمة واستعمال العنف أو التهديد باستعماله من الشروط الأساسية في أي عمل ثوري، ونلاحظ أن تعريفات النوع الأول توافق ضمنا علي ذلك. فالعمل الثوري بالضرورة يخالف الشرعية القائمة.

وعلي ذلك يمكن تقديم تعريف للثورة يشمل النوعين السابقين من التعريفات، فنقول: أن الثورة هي تلك العملية التي يتم بها ومن خلالها احداث تغيرات جذرية في مجتمع معين خلال فترة زمنية وجيزة نسبيا (J. Galtung 1974: 9)[١٦]. ومالم تحدث تغيرات اجتماعية جذرية بشكل يعيد صياغة النظام الاجتماعي من القمة الي القاعدة فان الحدث لايعتبر ثورة (E. Harrmassi 1976: 213).

ويمكن أن نستفيد من كوهان (مرجع سابق، ص٣٩) في أن نحدد *التغيرات الاجتماعية التي تحدثها الثورة* فيما يلي:

١ - التغير في الأساس الطبقي للنخبة أو الصفوة الحاكمة.

٢ - القضاء علي المؤسسات الاجتماعية السابقة واستبدال أخري جديدة بها أو علي الأقل تغيير وظائف هذه المؤسسات القديمة بوظائف أخري جديدة.

٣ - تغيير بنية العلاقات الاجتماعية والثقافية من خلال اعادة توزيع الثروة وتغيير شكل الملكية.

٤ - تغيير بنية العلاقات الخارجية، وتغيير وضع الدولة في تقسيم العمل العالمي.

ويميز والتر لاكور (W. Laqueur 1968: 202-3) أربع مراحل تاريخية لكل ثورة اجتماعية: *المرحلة الأولي* وهي مرحلة الاعداد والانطلاق وهي المرحلة التي تتميز بالعنف وتجاوز الشكل القانوني القائم للاستيلاء علي السلطة. أما *المرحلة الثانية* فهي المرحلة الأولي للثورة وهي المرحلة التي تعقب الاستيلاء علي السلطة. وفي هذه المرحلة تتحقق الشروط الضرورية لتحقيق الثورة والتغيرات الاجتماعية مثل القضاء علي العلاقات الاجتماعية القديمة والتخلص من كل سيطرة اجتماعية، وكذلك القضاء علي التبعية السياسية والاقتصادية وتحقيق الاستقلال السياسي والتخلص من كل أشكال السيطرة الخارجية وهذه هي الشروط الضرورية لاحداث أي تغيرات ثورية بعد ذلك.

أما *المرحلة الثالثة* فهي مرحلة الذروة وفيها تحدث معظم التغيرات الاجتماعية المنشودة، وهي تعبر عن نضج ونمو عميق في اتجاهات ونظريات الثورة. وأما *المرحلة الرابعة* والأخيرة فهي مرحلة استقرار الثورة وفيها تكون الثورة قد حددت اتجاهها ودخلت في عملية اجتماعية جديدة هي أقرب الي عملية *"اتزان اجتماعي جديد"* *New equlibrium* وقد تستمر هذه المرحلة مدة طويلة. وقد تحدث تغيرات جديدة بعد ذلك. وليس شرطا أن كل ثورة تمر بهذه المراحل الأربعة فقد تحدث انتكاسات للثورة في أي مرحلة من سلسلة المراحل. أو يتغير اتجاه الثورة.

وعلي أي الأحوال اذا كان جوهر الثورة - أي ثورة - هو تلك التغيرات البنيوية الحادثة في المجتمع التي بدونها لا تعتبر الثورة ثورة، فان الثورات تتمايز بعضها عن بعض وتختلف بمدي ما

تحققه من تغيرات في الأبعاد المذكورة. وبالطبع يأتي الاصلاح التربوي الراديكالي في النظم التعليمية القائمة مناظرا دائما، أو متطابقا Corresponding مع شكل ومدي التغيرات الحادثة في كل ثورة. وثمة سؤالا مازال قائما: ما المتغيرات أو الشروط الموضوعية التي تؤثر في مدي التغيرات الحادثة في كل ثورة ومن ثم تحدد طبيعتها ونمطها المتميز؟

٢ - متغيرات الثورة (١٧)

ثمة متغيرات كثيرة تعمل في الثورة وتحددها، لكن هناك دائما متغيرين أساسيين يلعبان الدور الحاسم في تحديد نمط كل ثورة. والمتغير الأول هو نوع *الايديولوجية الثورية*، فالايديولوجية هي التي تحدد توجهات التغير الثوري الاجتماعي والسياسي. أما المتغير الثاني فهو "*من الذي* يقوم *بالثورة*": الجماهير المنتفضة مع قيادتها، أم الصفوة العسكرية أو السياسية من خلال السيطرة علي جهاز الدولة في غياب الجماهير الشعبية ؟ لكن كيف يعمل هذان المتغيران في تحديد نمط التغيرات الثورية ؟ وكيف يمكن أن نستخدمهما في تحديد الأنماط المثالية Ideal Types للثورة ؟

المتغير الأول: الايديولوجية الثورية وتغيير الواقع الاجتماعي :

الايديولوجية بصفة عامة هي نسق من المباديء المعيارية المقومة لغايات العقل الانساني التي يمكن أن تتحقق بها هذه الغايات، والمقومة كذلك بطبيعة الواقع الاجتماعي الفيزيائي (Allardt

المقومة لغايات العقل الانساني التي يمكن أن تتحقق بها هذه الغايات، والمقومة كذلك لطبيعة الواقع الاجتماعي الفيزيائي (Allardt 1971: 24). ووصف الايديولوجية بالثورية انما يعني اعادة تعريف للغايات والوسائل وطبيعة الواقع. ومن ثم فالايديولوجية الثورية كما نفهم من تعريفها هي بناء لواقع اجتماعي جديد (Ibid) ومثل هذا التعريف يثير مسألة تأثير الأفكار في الواقع وهي من المشكلات الرئيسية في علم الاجتماع. دون أن نخوض في هذه المسألة فحسبنا أن نقول مع "الاردت" Allardt و"وننش" Winch أن ثمة علاقة بين الفكر والواقع والعلاقة بينهما منطقية - نظرية Concep-tual فالعلاقة بين الفكر والواقع ليست علاقة سببية - فهي لاتتعلق بظاهرتين واقعتين مستقلين عن بعضهما الآخر. فنحن نلاحظ العالم المحيط بنا من خلال أفكارنا عنه، وندرس أفكارنا في سياق العالم المحيط بنا (Allardt 1971: 25 & Winch 1958: 14).

واذا ما اتفقنا حول القضية السابقة، فاننا يمكن أن نرتب علي ذلك أنه يوجد ثمة علاقة بين الايديولوجية والتغير الاجتماعي. فكل تغير اجتماعي تم نتيجة تغير ايديولوجي (Hobsbawm 197: 86) أو بالأحري كما يقول "دينس راي" أن كل تغير اجتماعي تم نتيجة دعم ايديولوجية معينة (D. Ray 1970: 307). وقد استخلص كل من "هوبسبوم" و"راي" هذه العلاقة من دراسة الحالات التاريخية التي ارتبطت فيها الايديولوجية بالتغير الاجتماعي. بينما قد توصل اليها "الاردت" من خلال تحليله النظري لتعريف الايديولوجية الثورية نفسها. ولا تأتي الايديولوجية الا من خلال دينامية الواقع نفسه "فالايديولوجية في بلد ما قد تكونت وشكلت من خلال التاريخ المادي للمجتمع، لكن

حينما تتصدع مؤسسات المجتمع القديم فان الايديولوجية نفسها تصبح قوة مؤثرة في تشكيل مؤسسات جديدة... وهكذا (MacEwan 1975: 67).

واذا كانت هذه هي العلاقة بين الايديولوجية الثورية والواقع، فكيف تتحقق هذه العلاقة؟ أعني كيف تؤثر الايديولوجية في تغيير بنية علاقات الواقع؟

ان الواقع الاجتماعي Social Reality يتكون من جانبين الثقافة Culture والبنية الاجتماعية. والايديولوجية تؤثر في الواقع بشكل مختلف في كل جانب عنه في الآخر. فتأثير الايديولوجية في الثقافة كجانب من الواقع - غير تأثيرها في البنية - كجانب مختلف من الواقع الاجتماعي.

أولا: الايديولوجية والثقافة :

الثقافة هي نوع من البنية المعرفية التقويمية للواقع. أي هي مبادىء فهم وتقويم طبيعة الواقع الاجتماعي والفيزيائي (Bourdieu 1977:114) ويقول ولاس Wallace أن لكل فرد بنية معرفية تقديرية تشكل له رؤيته الكلية للحياة ويطلق عليها Mazway بمعني طريقة تفكير الفرد ونظرته الي الأمور ، وإن ثقافة مجموعة اجتماعية معينة أو ثقافة مجتمع ما هي الا تلك الأجزاء المشتركة بينهم من طرق التفكير الفردية Mazway بين أعضاء هذه الجماعة الاجتماعية أو المجتمع (Wallace 1961: 6).

وتعريف الثقافة علي هذا النحو - أي باعتبارها البنية المعرفية البانية للواقع، هو نفس تعريف الايديولوجية. ولذلك فالايديولوجية والثقافة متداخلان. لكن تظل الايديولوجية بحكم تعريفها كاعادة بناء فهم الواقع، هي بانية الثقافة (أي بانية المعرفية من الواقع الاجتماعي). والعلاقة علي هذا النحو - بين الايديولوجية والثقافة - مسألة نظرية منطقية Conceptual لا تحتاج الي اثبات امبريقي - كما بينا ذلك سابقا. لكن في نفس الوقت، اذا أردنا دراسة أو معرفة مدي وعمق تأثير الايديولوجيا في اعادة بناء ثقافة واقع معين، نكون بذلك قد انتقلنا من مستوي الاستنتاج النظري المنطقي للعلاقة الي مستوي آخر يتطلب استنتاجا امبريقيا. ذلك أن مسألة مدي وعمق تأثير الايديولوجيا في الثقافة مسألة لا تعتمد فقط علي مدي قوة وترابط الايديولوجية أو مدي راديكاليتها في التغيير، بل تعتمد أيضا علي مدي قوة المشايعين لها، ومدي الوجود الشعبي لهذه الايديولوجية - وهذا شيء يختلف بالطبع من واقع اجتماعي الي آخر.

ويميز هوبسبوم بين مستويين تعمل الايديولوجيا عند كل منهما بوظيفة مختلفة. ففي المستوي الأول نجد أن الايديولوجيا عبارة عن نسق من مفاهيم ومدركات محددة عن الواقع الاجتماعي والفيزيقي. وعادة ما يطلق أسم براق علي هذا النسق مثل الليبرالية أو الوطنية أو الشيوعية... الخ. ويمكن أن ينبثق عن هذا النسق برامج عمل سياسية واجتماعية. أما في المستوي الثاني فإن الايديولوجيا تعمل كأنسقة أفعال. والايديولوجيا كنسق من المفاهيم والمعتقدات والمدركات حول المجتمع، لا توجد محددة أو مدركة بوعي في المستوي الثاني. لكنها مع ذلك تشكل أساس أفعال وسلوكيات مجموعة معينة مع الناس.

فالايديولوجية توجد في هذا المستوي كأنسقة أفعال (Hobsbawm 1977: 86) والمستوي الأول بالنسبة لهوبسبوم هو مستوي النخبة أو الصفوة Elite في مجتمع ما. ويطلق هوبسبوم علي الايديولوجية في هذا المستوي النظريات السياسية والاجتماعية أما في المستوي الثاني فهو مستوي الجمهور العريض في المجتمع ويطلق هوبسبوم علي الايديولوجية في هذا المستوي الجماهيري أنسقة الفعل. ويرتب هوبسبوم علي ذلك أن الايديولوجيات في المستوي الأول أي النظريات الاجتماعية والسياسية لدي الصفوة أو أي جماعة سياسية أو اجتماعية في مجتمع ما لا تصبح فعالة الا عندما تنقل الي الجماهير في شكل نماذج أو أنسقة من الفعل الاجتماعي. وليس معني ذلك أن كل مستوي يختص بوظيفة معينة للايديولوجيا. فأنسقة الفعل الاجتماعي في المستوي الثاني هي التي تجعل الايديولوجيا في المستوي الأول فعالة. كما أن النظريات الاجتماعية والسياسية أي الايديولوجيا في المستوي الأول هي التي تدعم وتشكل أنسقة الفعل، أي الايديولوجيا في المستوي الثاني.

والنتيجة التي نستخلصها هنا، أن فعالية ايديولوجيا ما تصبح رهنا بمدي مشاركة الجماهير في تغيير الواقع الاجتماعي فمثل هذه المشاركة هي التي تنقل أو تحيل الايديولوجيا، من كونها مجرد أنسقة نظرية الي واقع فعلي في ضرورة أنسقة "فعل اجتماعي" بين الجماهير أو بعبارة أخري فان المشاركة الشعبية هي التي تنقل الايديولوجيا من الصفوة الي واقع الجماهير المعاش في صورة أفعال وسلوكيات يومية. وهنا فقط، تتحقق النظريات أو البرامج الاجتماعية والسياسية المنبثقة عن النظريات في المستوي الأول. وهذه النتيجة هي ما تدعم

قولنا أن مدي عمق تأثير الايديولوجيا في اعادة بناء الثقافة انما يتوقف علي قوة المشايعين لها أي قوة المشاركة الشعبية في عملية التغيير.

ثانيا: الايديولوجيا والبنية الاجتماعية.

البنية الاجتماعية، كما يقول ألاردت هي "*تلك النماذج الثابتة من تفاعل أعضاء المجتمع*" (*Allardt 1971: 33*). أو هي العلاقات الاجتماعية القائمة بين متغيرات النسق الاجتماعي. ونسأل: ما العلاقة بين الايديولوجيا والبنية الاجتماعية؟ وهل التغير الثقافي يمكن أن يؤدي بالضرورة الي تغير بنيوي في المجتمع؟

الثقافة مستقلة نسبيا عن البنية الاجتماعية، فهي ذات بنية قسرية ولا تستنبط من الواقع، وان كانت تحافظ علي بقاء البنية الاجتماعية وتعمل علي استمراراها واعادة انتاجها (Bourdieu & Passiron 1977: 4) فالعلاقة بين الثقافة والواقع ليست علاقة منطقية نظرية بل علاقة امبريقية. فقد تتغير الثقافة بفعل الايديولوجية الثورية – لكن ذلك لا ينتج عنه بالضرورة تغير في علاقات النفوذ السائدة في المجتمع. وفي نفس الوقت فانه يمكن – نظريا – أن تتغير علاقات النفوذ في المجتمع لكن ذلك لا يفضي بالضرورة الي تغير في البنية الثقافية أو علي الأقل تغيرات عميقة ذات مغزي في ثقافة المجتمع.

ومن هنا يمكن القول بأن الايديولوجية الثورية – وان كان يلزم عنها منطقيا تغير في بنية الثقافة، تغيرا يتوقف عمقه ومداه علي

عوامل امبريقية أخري، فانها، أي الايديولوجية الثورية غير كافية بذاتها في احداث أي تغييرات بنيوية في المجتمع فالثقافة يمكن أن تتغير بتغير النماذج المعرفية التقريمية للناس Mazway في ضوء ما بينا سابقا، لكن التغيرات البنيوية تتطلب مسبقا الي حد ما استعمال القوة وممارسة بعض الأنشطة التي تقوم عليها. فالبني الاجتماعية القديمة – القائمة في المجتمع – يمكن أن تضعف أو تنهار حين يفقد أصحاب السلطة نفوذهم لكنها لا تتغير مالم تقم مؤسسات جديدة، والمؤسسات لا تقوم الا بالعمل ولا يتم بنائها الا بوجود شكل من أشكال القيادة والتنظيم. وتظل الايديولوجية الثورية مع ذلك دافعا وموجها للتغير البنيوي وشرطا أساسيا لنجاحه وضمان تحقيقه.

واذا تصورنا نظريا أن تغيرا ما قد حدث في البنية الاجتماعية فهل ينتج عن ذلك تغير ثقافي؟ الجواب بالنفي. فليس بالضرورة أن يظهر تغير ثقافي نتيجة التغير البنيوي – وذلك واضح في ضوء ما تقدم. فليست هناك علاقة منطقية بين التغير البنيوي والثقافة. والجواب علي هذا النحو يثير السؤال التالي: اذن، متي يحدث ارتباط بين التغيرين البنيوي والثقافي؟ وفي أي شكل من أشكال التغير البنيوي يتم تغير ثقافي؟

اثارة المشكلة علي هذا النحو يوضح تماما أن الايديولوجيا وحدها ليست عاملا كافيا لتفسير التغيرات الثورية أو في تحديد نمطها. وينبغي كي نفهم التغير الثوري أن ندرس متغيرا آخر يتعلق بأداة الثورة أو الطريقة التي تتم بها عملية تقويض نمط العلاقات والمؤسسات القديمة واقامة علاقات ومؤسسات أخري جديدة.

المتغير الثاني: التعبئة (والمشاركة) الجماهيرية:

وعبر (ألاردت) بين نمطين من الفعل الثوري والنمط الجماهيري الذي يقوم علي تعبئة الجماهير ومشاركتهم السياسية في تغيير العلاقات القديمة واقامة علاقات أخري جديدة من خلال نضال جماهيري. والنمط الثاني هو النمط الفوقي الذي تقوم فيه النخبة من خلال سيطرتها علي جهاز الدولة بعمليات التغير البنيوي في المجتمع، (Allardt 1971: 34). فماذا يعني حضور الجماهير أو غيابها؟

حضور الجماهير يعني تغير في بنية الثقافة. فالثقافة لاتتغير الا حينما تكون هناك مشاركة جماهيرية وأنشطة ايديولوجية ثورية بين الجماهير فذلك يتيح للايديولوجية أن تتحول من كونها نظريات اجتماعية داخل أدمغة قلة من المفكرين أو السياسين الي أنسقة للفعل الاجتماعي تتحرك بها الجماهير ومن خلالها - كما يقول هوبسبوم - حينئذ لا تتم فقط تغيرات بنيوية بل أيضا تجديدات ثقافية Culrural Construction (Allardt 1971: 35, Wallace 1961: 7, Fagen 1969, Hobsbawm 1977: 188). ان أنسقة الفعل بين الجماهير، التي يتكلم عنها هوبسبوم هي نفسها النماذج المعرفية الجديدة التي تتكون لدي الناس التي تكلم عنها ولاس. وعلي أي الأحوال ان حضور ومشاركة الجماهير وتعبئتها هر الذي يحقق العلاقة بين الايديولوجية الثورية والثقافة والتغير البنيوي كما يتضح من الشكل رقم (٣).

ويوضح فانون أهمية التعبئة الجماهيرية في تغير البنية الثقافية، وان كان يعرض المسألة بطريقة مختلفة بعض الشيء -

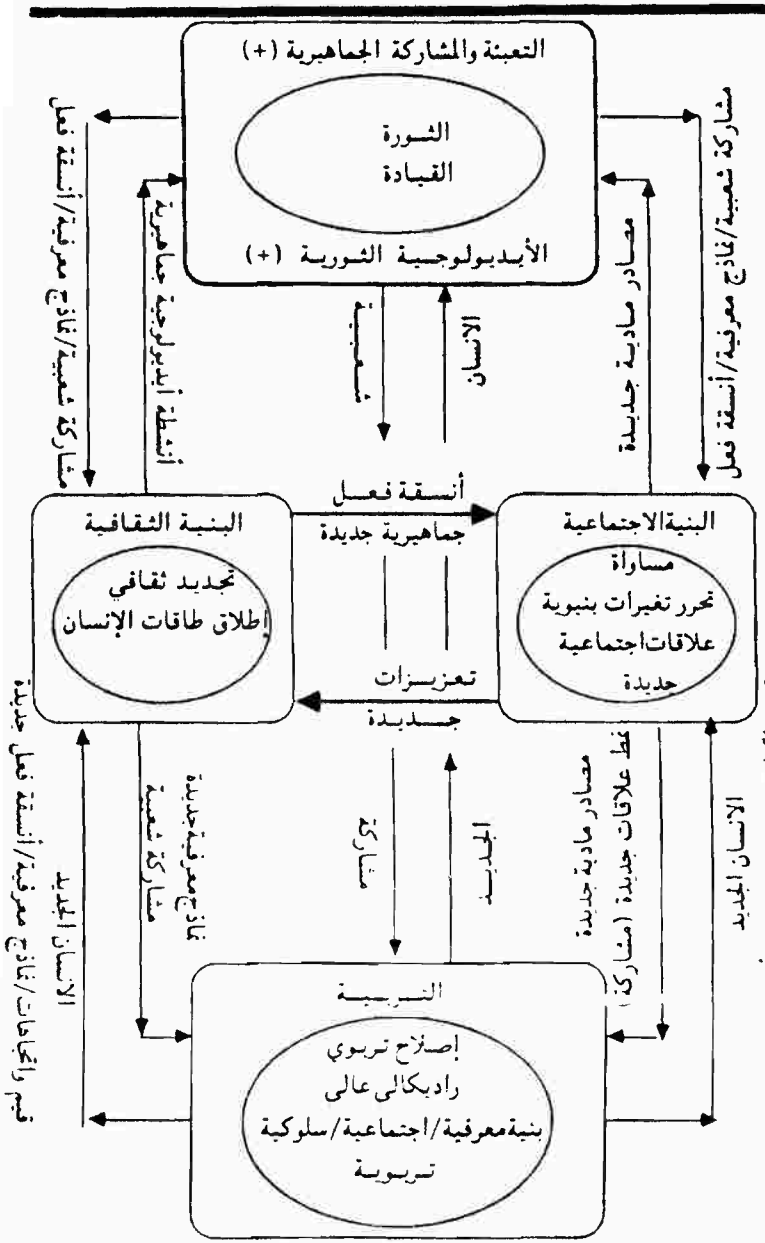

شكل رقم (٣) ديناميكية المتغيرات الوسيطة (الايديولوجية الثورية والمشاركة الشعبية) في شكل الاصلاح التربوي الراديكالي في نمط الثورة الشعبية

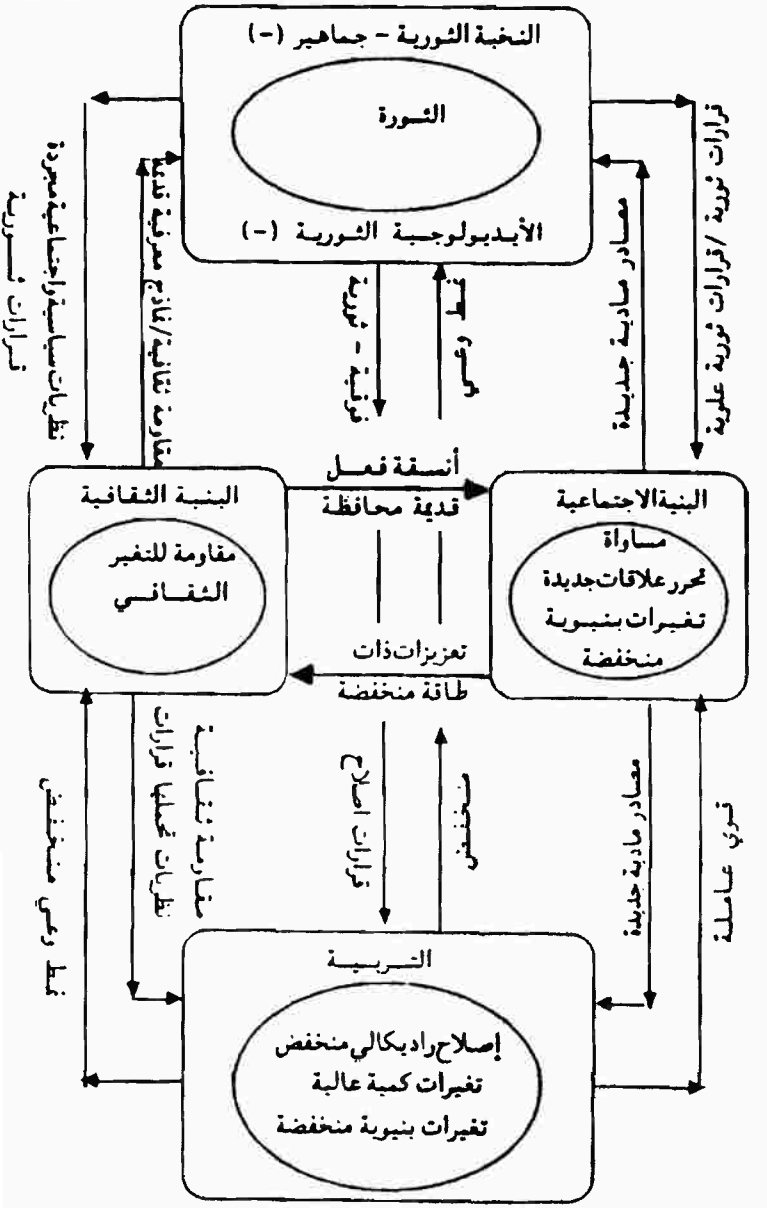

شكل رقم (٤) ديناميكية المتغيرات الوسيطة (أيديولوجية منخفضة في درجة إتساقها وتوجهها الراديكالي + مشاركة جماهيرية غائبة) في تشكيل الاصلاح التربوي الراديكالي في نمط الثورة الفوقية.

في مكان مأمون بمعزل من تأثير النضال اليومي للجماهير، فمن خلال النضال اليومي من أجل التغيير، ومن خلال تطور هذا النضال وما يحققه من انجازات ثورية، تتخذ الثقافة ضروبا وصورا جديدة. ويوضح فانون ذلك جليا وبشكل رائع في قوله:

> "ان النضال من أجل الحرية لا يعطي للثقافة الوطنية مجرد أشكالها وقيمها السابقة، فهذا النضال الذي اتجه منذ البداية الي ارساء علاقات اجتماعية وسياسية جديدة بين الناس لا يمكن أن يترك الثقافة - سواء في الشكل أو المحتوي - بمنأي عن هذا التغير. فبعد انتهاء الصراع لا يختفي فقط الاحتلال (وعلاقات القهر والاستغلال) بل يختفي أيضا الانسان المحتل (المقهور المستذل).
>
> (F. Fanon 1963: 24 Quoted in Carnoy 1976: 265).

أما الثورات الفوقية التي تندلع من أعلي، في غياب الجماهير، فانها كقاعدة لا تحدث تغيرا في بنية الثقافة، ولا تخلق ثقافة جديدة والشكل رقم (٤) يوضح ديناميه هذه العلاقة ومن أمثلة هذه الثورات الفوقية ثورات الصفوة العسكرية في العالم الثالث، وكذلك ثورات معظم دول أوربا الشرقية - الاشتراكية، فالذي احدث التغيرات الثورية في أوربا الشرقية هو الجيش الأحمر. صحيح كانت هناك ايديولوجية عالية التماسك لدي القيادة الشيوعية الوطنية، لكن ذلك كان في غياب جماهير الشعب. ومن ثم حرمت هذه البلاد من فرصة تحويل الايديولوجية من المستوي الأول - النظري - الي أنسقة فعل أو نماذج معرفية ثورية بين الجماهير. والنتيجة أنه رغم حدوث تغيرات بنيوية في هذه المجتمعات - سواء في بلدان الثورات العسكرية في

العالم الثالث أو الثورة الاشتراكية في بعض بلدان أوربا الشرقية، فان هذه البلاد مازالت تحتفظ وتحافظ علي كثير من بنية ثقافتها التقليدية - القديمة.

٣ - أنماط الثورة.

يتضح من المناقشة السابقة أن المكانات التي تنطوي عليها الثورة في أحداث التغيرات في الواقع الاجتماعي انما تكمن في هذين المتغيرين الايديولوجية الثورية والتعبئة الجماهيرية. فهما المتغيران اللذان يحددان امكانات أو طاقة ثورة معينة في التغيير. وبالتالي يمكن اتخاذهما كمتغيرين في بناء طيبولوجي يصنف أنماط الثورة المختلفة ويمكن استخدامه كمخطط تفسيري لفهم هذه الأنماط. فقد رأينا أن الايديولوجيا الثورية متغير أساسي في أي عمل ثوري. ولا توجد ثورة بلا ايديولوجية لكن تختلف الايديولوجية من ثورة الي أخري في درجة تماسكها وتوجهها الراديكالي نحو التغيير فهناك ايديولوجيات عالية الدرجة في تماسكها وراديكاليتها الجماهيرية، فقد رأينا أن التغيير الثوري في البني الاجتماعية قد يتم من خلال الجماهير ومشاركتها الفعلية أو يتم في غيابها من خلال أجهزة الدولة وقرارات النخبة الثورية من أعلي. وقد نتصور متصلا للمتغير الأول وهو متغير الايديولوجيا وفي نهاية أحد طرفيه ايديولوجيا عالية التماسك والتوجه الراديكالي، وفي أقصي الطرف الآخر ايديولوجيا منخفضة التماسك والتوجه الراديكالي. ونفس الشيء يمكن عمله بالنسبة للمتغير الثاني، متغير التعبئة الجماهيرية، فيمكن تصور متصل في أقصي أحد طرفيه تعبئة جماهيرية عالية وفي أقصي الطرف الثاني تعبئة جماهيرية

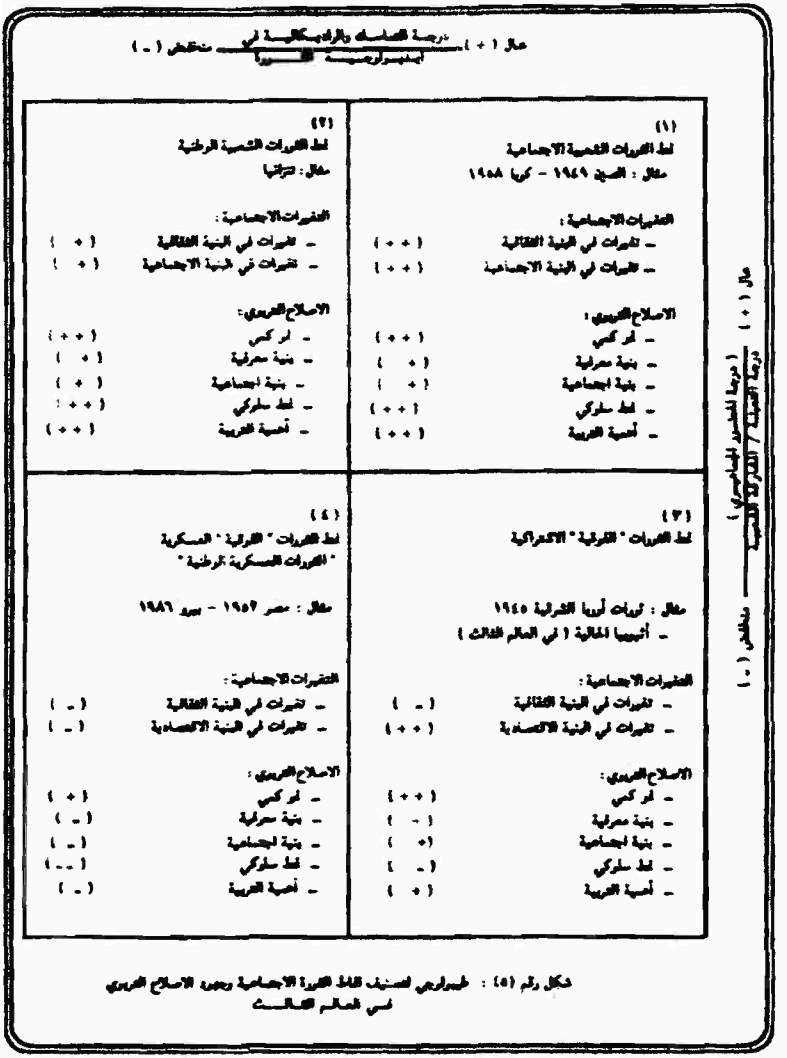

شكل رقم (٥) : طيبولوجي لتصنيف أنماط الثورة الاجتماعية ودور الاصلاح التربوي في العالم الثالث

منخفضة. ويمكن حينئذ أن يقام تصنيف طيبولوجي من أربعة أنماط مثالية كما هو موضح بالشكل رقم (٥). وهي كما يلي:

١ – *النمط الأول*: نمط الثورات الكبري التي ظهرت في تاريخ البشرية

والتي تضمنت تعبئة جماهيرية عالية وايديولوجية واضحة التوجه متماسكة المنطق. ومن نماذج هذه الثورة في القرن العشرين الثورة الروسية ١٩١٧ والثورة الصينية ١٩٤٩، كما يمكن أن يشمل هذا النمط بدرجة ما الثورة الكوبية وثورة الجزائر.

٢ - *النمط الثاني*: نمط ثورات الاستقلال الوطنية ونموذجها تنزانيا. حيث نجد تعبئة عالية نسبيا مع ايديولوجية وطنية اجتماعية منخفضة التماسك المنطقي ومنخفضة في درجة التوجه الراديكالي الاجتماعي.

٣ - *النمط الثالث*: وهو نمط الثورات الاشتراكية ذات الايديولوجية العالية في درجة تماسكها وتوجهها لكنها ذات تعبئة جماهيرية منخفضة. فالتحول الاشتراكي قامت به الصفوة السياسية المتمثلة في الأحزاب الشيوعية واستندت علي قوة الجيش الأحمر السوفيتي في صنع التغير الاجتماعي "الثوري" ويتمثل ذلك في معظم ثورات أوربا الشرقية بعد ١٩٤٥.

٤ - *النمط الرابع*: وهو نمط الثورات العسكرية الفوقية. وهو نمط ذات حضور جماهيري منخفض وايديولوجية ثورية منخفضة الدرجة من حيث تماسكها المنطقي وتوجهها الراديكالي اذا قيست بتلك الايديولوجيات الاجتماعية الأخري في النمط الأول علي سبيل المثال. ويشمل هذا النمط وان كان بدرجات مختلفة ثورات مثل الثورة المصرية ١٩٥٢ والثورة في بيرو ١٩٦٨، ويبدو أن معظم ثورات العالم الثالث هي ثورات من هذا النمط الرابع.

وكل نمط من أنماط الثورة هذه يختلف عن الآخر في طاقته وامكاناته فكلما كانت درجة الايديولوجية والتعبئة الجماهيرية عالية كلما كان النمط ينطوي علي طاقة امكانية ثورية عالية والعكس صحيح. والأنماط التي تنطوي علي امكانات ثورية عالية نتوقع أن توفر شروطا ملائمة لتحقيق نمط من الاصلاح التربوي أكثر راديكالية من غيره كما يتضح ذلك في الشكل رقم (٥).

وفي ضوء المناقشة السابقة نتوقع أن النمطين الأول والثاني من أنماط الثورة يسفران دائما عن جهود في الاصلاح التربوي عالية في درجة نجاحها وراديكاليتها، بالمعني الذي بيناه سابقا في الجزء الأول من الدراسة. وتتم هذه الجهود في اطار تغيرات واسعة في بنية المجتمع الثقافية والاجتماعية. ونتوقع كذلك إن النمط الثالث من أنماط الثورة يسفر عن تغيرات عالية في البنية الاجتماعية للمجتمع، مع تغيرات منخفضة في البنية الثقافية للمجتمع. ومن ثم فان جهود الاصلاح التربوي التي تتم في هذا الاطار نتوقع لها أن تكون مختلفة في درجة نجاحها وراديكاليتها من جانب أخر في جوانب النظام التربوي. فالجوانب البنيوية في النظام التعليمي ستكون أكثر تغيرا فهي التي سيتركز حولها الاصلاح بدرجة عالية بينما تنخفض درجات الاصلاح في الجوانب السلوكية والثقافية في النظام التعليمي. أما النمط الرابع من أنماط الثورة فنتوقع منه تغيرات منخفضة اجتماعية واقتصادية وتربوية أيضا.

وعلي أي الأحوال نحن في حاجة الي تطبيق الاطار النظري السابق في دراسة عدة حالات دراسة عميقة تمثل تجارب ثورية مختلفة لكل نمط من الأنماط الأربعة السابقة: *أولا*: حتي نقف علي

صحة هذه التوقعات وما يوجد خلفها من سمات وافتراضات نظرية تمت مناقشتها في الجزئين الأول والثاني من هذه الدراسة. *وثانيا*: لتوضيح تاثير المتغيرات الأساسية المشكلة لنمط الثورة - الايديولوجية والمشاركة الجماهيرية - في تشكيل جهود الاصلاح التربوي وربطه بجهود التغير الثوري في المجتمع الكبير. *ثالثا*: لتقديم نماذج توضيحية لدينامية هذا الاطار النظري في تفسيره:

وستقوم الدراسة الحالية بدراسة كوبا كحالة تمثل احدي التجارب الثورية الداخلة في النمط الأول من أنماط الثورة (الشكل رقم ٥)، لدراسة ما تم فيها من جهود ثورية واختبار اطارنا النظري وتوضيح قدرته في تفسير تحت أي الشروط نجحت جهود الاصلاح في كوبا؟ وبالطبع نحن في حاجة الي مزيد من الدراسة المماثلة في مصر وبيرو وتنزانيا حتي يستقر الاطار النظري كقوة مفسرة.